دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الخيال الرومانسي
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	باورا، السيرموريس
مؤلفين آخرين:	الصيرفي، إبراهيم(مترجم)
المجلد/العدد:	مج 1, ع 12
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1972
الشهر:	نيسان
الصفحات:	11 - 22
رقم MD:	277135
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الرومانسية فى الأدب، الأدب الإنجليزي ، الخيال والشعر ، النقد الادبي، الشعراء الرومانسيون
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/277135

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الخيال الرومانسي

بقلم السير موريس باورا

ترجمة ابراهيم الصيرفي

اذا اردنا ان نميز خاصية فريدة ينفرد بها الرومانسيون الانكليز من شعراء القرن الثامن عشر أمكننا أن نجدها فيما خلعوه على الخيال من اهمية وفي وجهةالنظر التي يتمسكون بها عنه . وهي وجهة نظر يتفق عليها بليك وكولردج ووردزورث ، وشيلي وكيتس ، رغم ما بينهم من خلافات بارزة في التفاصيل . وقد أمد الخيال كلا منهم بنظرية عميقة بارزة في الشعر . ولم يكن الخيال في القرن الثامن عشر نقطة رئيسية في الشعر ، فلم يكن له عند بوب وجونسون ودرايدن من قبلهما ، سوى اهمية ضئيلة وما كان يعني عندهم ، حين يذكرونه ، غير امر محدود القيمة . وهم يعترفون بالوهم : Fancy ، شريطة ان يوجهه ما يسمونه « بالحكم » ، وهم معجبون بالاستخدام المناسب للصور ، وهو ما يعنون به الاستعارات والانطباعات البصرية لا اكثر . اذ كان أقصى ما يحفلون به في الشعر صدقه في التعبير عن المشاعر ، أو كما يفضلون أن يقولوا ، في التعبير عن العاطفة . حسبهم أن يتحدثوا بمصطلحات عامة عن التجربة العامة للبشر ، لا أن يغوصوا الى النزوات الشخصية ليخلقوا عوالم جديدة . فالشاعر عندهم مفسر أكثر منه خالقا ، يهتم بعرض الجذاب من الامور التي نعرفها من قبل أكثر من اهتمامه بالرحلة الى كشف غير المرئي وغير المألوف . واهتمامهم بخفايا الحياة أقل من اهتمامهم بالمألوف من ظاهرها ، وهم يعتقدون أن وظيفتهم هي أن يعرضوا هذا بكل مافي وسعهم من سحر وصدق . ولكن الخيال عند الرومانسيين امر أساسي ، لانهم يعتقدون ان الشعر بدونه مستحيل .

هذا الايمان بالخيال كان جزءا من ايمان العصر بالذات الفردية . اذ كان الشعراء على وعي بالقدرة الرائعة على خلق عوالم من صنع الخيال ، وما كان يسعهم أن يؤمنوا ان هذا نوع من الكسل

(١) من كتاب له بهذا الاسم .

أو الزيف . بل انهم ، على العكس من ذلك ، كانوا يعتقدون ان كبح جماح الخيال انما يعني انكار امر حيوي ضروري لكيانهم جميعه . وهم يرون ان الخيال وحده هو الذي يجعل منهم شعراء ، وانهم يستطيعون بممارستهم اياه ، أن يقوموا بخير مما قام به الشعراء الذين ضحوا به في سبيل الدقة والذوق العام . وقد أدركوا ان الشعر يبلغ ذروة قوته حين ينطلق دافع الابداع دونما عائق ، كما عرفوا أن هذا أمر قد حدث خاصا بهم عندما شكلوا الرؤى العائمة في أشكال محددة راسخة ، وعندما اقتفوا أثر المعاني الوحشية الجانحة وسيطروا عليها . وكما حدث في عالم السياسة اذ تحول الناس بافكارهم عن النظام القائم الى مجالات أوسع تستهدف اصلاح حال الانسانية ، حدث في مجال الفنون : ان هجر الناس التخطيط التقليدي للوجود الى المغامرات المغرية بالمجد ! . وكما حدث في عصر النهضة حين وجد الشعراء فجأة ما في النفس الانسانية من امكانيات هائلة وعبروا عنها في فن معجز وجسور ، فن لا شك اكثر من مجرد محاكاة للحياة ، كذلك أحس الشعراء الرومانسيون ، وقد صاروا على وعي كامل بطاقاتهم الذاتية ، بحاجة ممائلة في اخراج طاقاتهم بخلق عوالم جديدة للعقل .

واصرار الرومانسي على الخيال أمر تقويه اعتبارات دينية وميتافيزيقية معا . وقد ظلت الفلسفة الانجليزية لمدة قرن من الزمان خاضعة لنظريات لوك . وهو يفترض ان العقل سلبي كلية ازاء الادراك ، وأنه لا أكثر من سجل للانطباعات الوافدة من الخارج ، « راصد كسول لعالم خارجي » . وقد كان منهاجه يناسب تماما عصر التأمل العلمي الذي وجد صداه ممثلا في نيوتن . وقد كان التفسير الآلي الذي قدمه كل من الفلاسفة والعلماء عن العالم ، يعني ان النفس الانسانية انما نالت حظا ضئيلا من التقدير الذي انصب خاصة على اشد ما فيها من معتقدات فطرية ، رغم ما لها من فاعلية في النفس لا تقل . وبهذا وجد لوك ونيوتن مكانا للاله في عالميهما . وجده الاول على اساس من ان « في كل جزء من اعمال الطبيعة دليلا كافيا على وجود الله » ووجده الثاني في المبدأ القائل بأن آلة الكون العظيمة انما تتضمن وجود مهندس . ولكن هذا ما لم يتطلبه الرومانسيون من الدين ابدا . فالدين عندهم محله القلب اكثر منه العقل ، مسألة خبرة ومعاناة أكثر منها مسألة منطق ، وقد آلمهم أن هذين التفسيرين الآليين للوجود انما هما انكار لمعتقداتهم الباطنة . وهكذا كان الشأن مع الشعر . كانت للوك آراؤه فيه ، كما كانت له آراؤه في معظم ألوان النشاط الانساني ، ولكن رأيه في الشعر لم يكن يجعله في جانبه . لانه لم يزد في رأيه عن كونه مجرد « لماحية » وأن عمل اللماحية هو ربط المعاني « ومن ثم خلق صور ممتعة ورؤى مقبولة من حيث هي وهم » . واللماحية في رأيه طاقة عاجزة تماما عن تحمل المسؤولية وغير معنية بالصدق او الحقيقة . وقد رفض الرومانسيون تلك النظرية باحتقار لانها تجرد خلقهم من ارتباطه الجوهري بالحياة .

ويغدو لوك هدفا لكل من بليك وكولردج اذ يمثل عندهما الجحود الهائل بطبيعة الوجود . وهما يذهبان الى أبعد من تفنيد آرائه الخاصة عن الله وعن الشعر : فهما يعاديان منهجه الكلي الذي يدعم هذه الاراء ، وأسوأ من ذلك أنهما يعاديانه لانه يجرد النفس الانسانية من القيمة . كذلك يرفضان مفهومه للكون ويحلان مكانه منهاجهما الذي يجدر بأن يطلق عليه « المنهج المثالي » لان العقل هو حجر الزاوية والعامل الغالب فيه . ولكنهما أصرا ، لانهما شاعران ، على أن الخيال هو اكبر نشاط حيوي للعقل . وما كان يسعهما الا أن يؤمنا أن الخيال وهو المنبع الوحيد للطاقة الروحية عندهما ، هو الجزء الالهي فينا وانهما عندما يمارسانه ، انما يشاركان بطريقة ما في ابداع الله . يقول بليك في زهو واعجاز :

« عالم الخيال هذا هو عالم الابدية ، هو المصدر الالهي الذي سيضمنا اليه بعد الخلاص من جسدنا الطيني . عالم الخيال هذا لا نهائي وأبدي ، على حين ان عالم التكاثر او العالم الطيني متناه وموقوت ، توجد في عالم الخيال الحقائق الدائمة لكل ما نراه منعكسة على تلك المرآة الطينية في الطبيعة . كل الاشياء متضمنة أشكالها الابدية في الجسم الالهي للمخلص (المسيح) ، كرمة الابدية الخالصة، الخيال الانساني ».

ولا يقل الخيال عند بليك عن الاله بما يحدثـه في الروح الانسانية . وينتج عن ذلك أن أي فعل خلاق شكله الخيال انما هو فعل الهي وأن هذا معناه أن الخيال هو الذي يحقق الطبيعة الروحية للانسان تحققا نهائيا وكاملا . وكولردج لم يتحدث بتلك اليقينية التي تشبه الوحي ، ولكن النتيجة التي انتهى اليها لا تختلف كثيرا عما انتهى اليه بليك ، يقول :

« ومن أن الخيال الاول هو القوة الحية والمحرك الاول لكل ادراك انساني ، وأنه بوصفه تكرار للعقل الابدي للخلق حال في « الانا » اللامتناهية » .

والحق أنه ينظر الى الشعر باعتباره ثمرة للخيـــال الثاني . ولكن لما كان هذا لا يختلف الا من حيث الدرجة ، عن الخيال الاول ، فسيظل واضحا أن الخيال عند كولردج هو صاحب الاهمية الاولى لانه يشارك في النشاط الخلاق للالـه .

وتلك قضية خطيرة لا تقف عند بليك وكولردج ، فقد أخذ بها كل من ووردزورث وشيلي وكيتس الى حد ما . وكان كل منهم يؤمن أن الخيال ليس أغلى ما يملك فحسب بل يؤمن فوق ذلك أنه مرتبط بطريقة ما بنظام فوق الطبيعة . ولم توجد من قبل مثل هذه النظرية قط ، ومنها يغترف الشعر الرومانسي جل ما فيه من سحر . وتكمن الخطورة في مثل هذا الفرض الجريء في أن الشاعر قد يستغرقه عالمه الخاص وما يقتضيه كشف زوايا هذا العالم البعيدة ، حتى يغدو عاجزا عن نقل تجربته الجوهرية الى الاخرين ويفشل في تحويلهم الى عقيدته الخاصة . وقد خلق الرومانسيون يقينا ، عوالم من صنعهم ، كما نجحوا في اقناع الاخرين بأن تلك العوالم غير باطلة ولا هي مجرد نتائج من صنع الوهم . والحق أنهم كانوا ، في هذا المجال ، أقرب الى الارض والى الانسان العادي من معاصريهم من الرومانسيين الالمان . فلم يكن لديهم ذلك التقدير للحنين الذي لا يروي كفاية في ذاته ، ولا الايمان بالهلوسات والسحر اللذين يلعبان دورا كبيرا في عقل برينتانو ، ولم يكن لهم ذلك الاستمتاع العدمي في أن ينتزعوا من الحياة ، وهو ما كتب عنه نوفاليس الى كارولين شليجل :

« اعلم أن الخيال مرتبط ارتباطا وثيقا بكل ما هو غير خلقي ، بكل ما هو حيواني ، ولكني أعلم كذلك كيف يشبه الخيال كله الاحلام ، كيف يحب الليل ، واللامعنى ،والوحدة. ولم يكن هذا ما يفكر فيه الرومانسيون الانجليز . فهـم يؤمنون ان الخيال ذو قرابة وثيقة بالحقيقة والواقع ، وقد جاهدوا أن يعنى شعرهم بهذا » .

وقد واجهوا بذلك مشكلة قديمة . فالانسان اذا اطلق لخياله العنان ، فأي ضمان يثبت أن ما يقوله صادق بأي معنى من معاني الصدق ؟ أيستطيع ذلك الخيال أن يخبرنا بأمر لا نعرفه ، أم هو قد انعزل عن الحياة العادية انعزال الهارب منها ؟ وقد وردت الاجابة عن هذا في معنى للوك عندما تناول (اللماحية) الشعرية في شجاعة ، كما وردت اجابة مماثلة من صديق بليك الثائر توم بين في كتابـه « عصر العقل Age of reason » :

« ان لدي بعض الميل الى الشعر ، وكذلك أعتقد أن لدي موهبة ما ، ولكن آثرت أن أكبت ذلك لا أن أشجعه ، لانه يقودنا الى عالم الخيال كثيرا » .

وتلك احدى وجهات النظر في الموضوع ، وهي ليست بالجديدة . وهي تقوم على الفرض القائل بأن عوالم الخيال ليست الا مجرد أوهام ، وانها لهذا منعزلة عن الحياة . وقد أثارت هذه المشكلة شعراء العصر الاليزابيثي ، وشيكسبير يكشف عن المامه بها عندما ينطق شيسيوس Theseus :

ان عين الشاعر في تقلبها الرقيق المجنون ،
لتنتقل من السماء الى الارض ، ومن الارض الى السماء،
وعندما يتجسم الخيال
اذا باشكال الاشياء المجهولة ،
وقلم الشاعر يحيلها الى أشكال، ويكسب القدم الاثيوي
معنى محددا واسما .

ولعل هذا المعنى قد نال رضاء فيلسوف ايطالي هو بيكوديلا ميراندولا Pico della Mirandola الذي كان يظن أن الخيال هو الموهبة الميتة تقريبا ، ولعله على وجه اليقين

كان يرحب بالعلاقة التي صنفها ثيسيوس بين الشاعر والمجنون والمحب . وحتى أولئك الذين لم يغامروا بالسير بعيدا الى ذلك المدى ، ظنوا أن لمخلوقات الخيال قليلا مما يتصل بحياة الواقع ، وانها لا تحسن اكثر من الفرار المرضي من الحياة . وهذا رأي بيكون في كتابه « تقدم المعرفة The Advancement of Learning » .

« لما كان الخيال غير مرتبط بقوانين المادة ، فلعله يصل ، كما يحلو له ، هذا الذي فصمته الطبيعة ويفصم ما وصلته ، ولهذا يعقد بين الاشياء زواجا وطلاقا غير شرعيين » .

وبيكون يعتبر هذا نشاطا ممتعا لا ضرر فيه ، ليس الا . ورغم أن الاليزابيثيين قد ارتفعوا الى حد ما على العصور الاخرى في خلق عوالم الخيال ، فان مفكريهم الصارمين لم يتخذوا من ذلك قضية خطيرة ، وكان يرضيهم بعامة ، أنه لا يعدو أن يقدم تأجيلا من هموم الحياة العادية .

ولا يرضي هذا الموقف كلية أولئك الشعراء الذين يؤمنون ان الخيال ملكة الهية مرتبطة بالقضايا الجوهرية للوجود . والحق أن من العسير على أي شاعر تقريبا ان يعتقد ان ما يخلقه لا يعدو ان يكون لونا من الخيال بذلك المعنى المهين ، الذي يخلعه بيكون ومن شابهه على الكلمة . فالشعراء يعتقدون أن مخلوقاتهم تعنى بالحقيقة بطريقتها ، وهذا الاعتقاد هو الذي يشد من أزرهم في عملهم . وادراكهم في الحق ، آت عن غير ذلك المنطق التحليلي ، ولكنه مع ذلك نافذ . وهم يفترضون ان الشعر انما يعالج الحقيقة بمعنى ما ، رغم ان تلك الحقيقة قد تختلف عن الحقيقة العلمية او الحقيقة الفلسفية . وقد أدرك شيكسبير تلك الحقيقة بوضوح فيما تقوله هيبوليتا في ردها على حديث ثيسيوس عن الخيال :

ولكن قصة الليل قيلت ،
وكل عقولهم تحولت مما
لتعاين أبعد من صور الوهم ،
التي تنمو لتصبح شيئا عظيم الثبات ،
لكنه رائع ، من ثم ، وغريب .

فقد كان لدى هيبوليتا احساس كاف لكي ترى ان مخلوقات الشاعر ليست « لاشيئا اثيريا » وانما هي كائنات ترتبط بالحقيقة ارتباطا ما . وهي في هذا تقدم رأيا يعارض رأي بيكو الافلاطوني ، وان يكن ذا قرابة معينة برأي جارينو Guarino الذي يقول ان عبارات الشعر صادقة صدقا رمزيا لا حرفيا . ذلك أن مخلوقات الخيال عند هيبوليتا ترتبط بتجربة حية وتعكس نوعا من الحقيقة .

والرومانسيون يواجهون تلك القضية في قوة وعزم . وهم يصرون ، فضلا عن ابتعادهم عن التفكير في ان الخيال انما يعالج ما لا وجود له ، على انه انما يكشف نوعا ما من الحقيقة . وهم يرون انه حين ينشط يرى اشياء يعمى العقل العادي عن رؤيتها ، وانه يتصل اتصالا وثيقا بالبصيرة أو الشعور أو الحدس . والحق ان الخيال والبصيرة لا ينفصلان في الواقع ، وانما يكونان موهبة واحدة في كل الاغراض العملية . فالبصيرة توقظ الخيال ليعمل وهو بدوره يزيد في حدتها عندما ينشط . وهذا هو الفرض الذي كتب الشعراء الرومانسيون على اساسه . وهو يعني انه عندما تكون ملكاتهم الابداعية متضامة ، فان حاستهم تلهمهم سر الاشياء فيسبرون غورها ببصيرة خاصة . ثم يصوغون كشوفهم في اشكال من صنع الخيال . وليست هذه العملية بالعسيرة الفهم . فالغالبية منا تثيرها ، فنحن اذ نستخدم خيالنا نجد في أول الامر لغزا شائقا يتطلب حلا ، ثم بعد ذلك تمكننا تصوراتنا الخاصة في عقولنا من رؤية الكثير مما كان يكمن وراء الظلام أو العقل . وكما ياخذ تصورنا شكلا محددا ، نرى بمزيد من الوضوح ما حيرنا واثار عجبنا . وهذا ما يفعله الرومانسيون فهم يربطون بين الخيال والحقيقة لان مخلوقاتهم وليدة الهام البصيرة الخاصة وتحت قيادتها . وقد جلى كولردج هذه النقطة في حسم وهو يمتدح ووردزورث حين قال :

« كانت وحدة الشعور العميق بالفكر الثاقب ، والتوازن الدقيق للحقيقة في الملاحظة مع ملكة الخيال في تشكيل المادة الملاحظة ، وهي فوق ذلك الهبة الاصيلة لنشر النغمة وتهيئة الجو ، مصحوبا بالعمق والارتفاع لاشكال العالم المثالي

وحوادثه ومواقفه ، تلك التي طمست العادة لألاءها وأطفأت شرارتها وجففت انداءها في نظر الشاهد العادي » .

والخيال طالما يعمل في هذا الطريق ، لا يكون من الانصاف ان يرمى بأنه هروب من الحياة أو أنه لا يعدو أن يكون نوعا من الاسترخاء المقبول .

والمفهوم الذي يعالج الخيال عن قرب ليس فيما يعتقده لوك ، وقد عانى الرومانسيون في ازالة كل ما يشوب تلك القضية من سوء فهم . وبما أن ما يمنعهم انما هو البصيرة المتخللة في طبيعة الاشياء ، فقد رفضوا تحديد لوك للخيال بمفهومه عن الاشياء الطبيعية ، لان ذلك التحديد يسلب العقل وظيفته الجوهرية الكبرى التي تدرك وتخلق في نفس الوقت . وفي ذلك يكتب بليك بسخرية ملهمة :

« المعنويات هي الإشياء الحقيقية الوحيدة ، لا أحد يعرف مكان ما يدعى بالمادي : انه في الزيف ، ووجوده ادعاء . أين الوجود خارج العقل أو الفكر ؟ أين هو الا في عقل احمق ؟ » .

وقد انتهى كولردج الى نفس النتيجة بأسباب لاتختلف عن ذلك كثيرا :

« اذا لم يكن العقل سلبيا ، واذا كان حقيقة مخلوقا على صورة الله ، واذا كان ذلك ايضا ، بالمعنى السامي ، صورة للخالق ، فان مجالا من الشك يبقى في أن أي منهج يبنى على سلبية العقل لا بد ان يكون منهجا باطلا » .

وبليك وكولردج عندما رفضا رأي الحسيين في العالم الخارجي ، قد مهدا بذلك الطريق لاعادة سيادة الروح التي أنكرها لوك وآن تكون في ذلك الحين محل مناقشة الميتافيزيقيين الالمان . ولكن بليك لم يكن يعرف عنهم شيئا ، وقد نبعت النتائج التي وصل اليها من نظرته الخاصة ، اذ لم يكن يؤمن بأن المادة ليست حقيقية حقيقة الروح بأي معنى من المعاني . ولقد قرأ كولردج كانت وشيلي ووجد فيهما الكثير مما يؤيد آراءه ، ولكن هذه الآراء انما تعود الى اقتناعه الفطري بأن عالم الروح هو الحقيقة الوحيدة ، اكثر مما تعود الى هذين الفيلسوفين . ولانه كان شاعرا في الدرجة الاولى وفيلسوفا في الدرجة الثانية ، جاء مفهومه للكون من احساسه القوي بحياة داخلية ومن ايمانه بأن الخيال ، في عمله مع الحدس ، اكثر احتمالا من العقل التحليلي في الوصول الى كشوف في الامور التي تعنينا بحق .

والرومانسيون ، برفضهم تفسيرات لوك ونيوتن للعالم المرئي ، انما يطيعون نداء داخليا لارتياد عالم الروح أعمق ما يكون الارتياد . وكل منهم يؤمن ، بطرق مختلفة بنظام للاشياء غير تلك التي نراها ونعرفها ، وهذا هو الهدف لبحثهم الشغوف . وقد رغبوا في النفاذ الى الحقيقة الكامنة كي يكشفوا عن أسرارها ويدركوا من خلال ذلك ، ادراكا أكثر وضوحا ، ما الذي تعنيه الحياة وما قيمتها . وكانوا بذلك مقتنعين بأنه على الرغم من ان الاشياء المرئية هي الادوات التي نجد من خلالها الحقيقة ، فانها ليست كل شيء وليس لها في الحق سوى مغزى ضئيل ، ما لم ترتبط بقوة ما مدعمة ومحيطة . وليس عسيرا ادراك ما يعنيه هذا . فالكثرة منا تشعر ان العالم الطبيعي غير كاف ويطلبون خطة ما تفسر لماذا تكون معتقداتنا وايماننا صادقة ، ولماذا تكون لنا في نظامنا الآلي فيما يبدو ، مقاييس للقيم لما لا تستطيع قياسه الآلية . لقد فسر لوك ونيوتن ما هو العالم الحسي ، ولم يفسروا ما قيمته . والحق انهما ، بتفسيرهما الاحكام العقلية عن طريق عمليات فيزيقية ، قد حطما صدق هذه الاحكام ، ما دام التأكيد عملية ذاتية ، سببية . ومثل هذه المناهج تتضمن روح الانكار ، لانها في محاولتها لتفسير عقيدتنا في الخير أو المقدس او الجميل لا تنجح الا في الاتيان بتغير تراخ لتلك القيم . وهذا هو السر في أن بليك قد رفض الطبيعيين الذريين ومن شابههم باعتبارهم رجالا يحاولون عبثا اطفاء النور المقدس الذي يكسب وحده الحياة معناها ، وقد أعلن أنه لا تقوم لنظريتهم قائمة في وجود ذلك النور :

ذرات ديمقريطس
وجزئيات نيوتن في الضوء
رمال على شاطىء البحر الاحمر
حيث تشرق خيام الانبياء وضاءة .

اهتم الرومانسيون بالامور الروحية ، وفي أملهم أن

يستطيعوا ادراكها وتمثلها في شعر مكثف ، وذلك عن طريق الخيال والبصيرة الملهمة .

وهذا البحث عن العالم الخفي هو الذي ايقظ الهام الرومانسيين وجعل منهم شعراء . وتأتي قوة عملهم من القوة المحركة لرغباتهم في ادراك تلك الحقائق المطلقة من جهة ، ومن تساميهم عندما يرون انهم قد كشفوا اسرارها . والرومانسيون الانجليز لا يشبهون معاصريهم من الرومانسيين الالمان ، الذين كانوا يقنعون بعواطف الحنين ، ولم يكونوا يحفلون كثيرا بالبحث عن « الماوراء » ، ما دام يبلغ هذا الحد من الغموض . وقد اقتفى الرومانسيون الانجليز سبيل ما يتطلبه خيالهم حتى وجدوا الاجابات التي تقنعهم . وكان هدفهم ان ينقلوا سر الاشياء عبر كشوفهم الفردية ومن ثم يبرزون ما تعنيه تلك الاسرار ولم يتجهوا الى المنطق العقلي وانما اتجهوا الى النفس كاملة ، الى الحلقة الكاملة من ملكات العقل والحواس والعواطف . وليس غير التمثل الفردي لتجربة الخيال ما يستطيع ان يفعل ذلك ، ففيها نرى أمثلة لما لا يمكن التعبير عنه بكلمات مباشرة ، ولما لا يمكن ايصاله الا عن طريق الايحاء والايماء فحسب . فالقوى التي رآها وردزورث في الطبيعة وشيلي في الحب قوى بالغة القوة حتى اننا لم نبدأ في ادراكها الا عندما برزت كل منها في مثال منفرد صارم ، ثم ادركنا من خلال الحالات المفردة ، شيئا ما مما عاينه الشاعر في رؤاه . ان جوهر الخيال الرومانسي في انه يستحدث اشكالا تعرض هذه القوى الخفية حالة نشاطها ، وليس من طريقة اخرى لعرضها ، ما دامت تقاوم التحليل والوصف ، ولا يمكن تمثلها الا من خلال أمثلة خاصة. وان ادراك تلك الامور الروحية ليختلف اختلافا تاما عن الادراك العلمي للقوانين الطبيعية او الادراك الفلسفي للحقائق العامة . فمثل تلك القوانين وهذه الحقائق تتقرر خاصة في كلمات مجردة ، ولكن القوى الروحية لا بد ان تقدم من خلال أمثلة خاصة ، لاننا لا نراها الا في فرديتها الحقيقية . والحق اننا لا نبدأ في ادراك مغزاها وسحرها الا عندما يسلط عليها ضوء الخيال المقدس . وهذا هو السر في حرص بليك الشديد على رأيه في ان الفن انما يعالج الحقائق العامة . وانه لم يشارك صمويل جونسون في احترام « عظمة التعميم »

ولعله تعارض معه بشدة في قوله : « ليس الا تمثل الطبيعة العامة ما يستطيع أن يمتع طويلا وأن يمتع كثيرا » اذ أن بليك يرى عكس ذلك كلية :

« أن تعمم ، معنى ذلك أن تكون أحمق . أما أن تخصص ، فهذا وحده يحدد الموهبة . فالمعارف العامة هي تلك التي يملكها الحمقى » .

فما هي الطبيعة العامة ؟ وهل يوجد شيء كهذا ؟ وما المعرفة العامة ؟ وهل يوجد مثل هذا ؟ قطعا ان كل معرفة شيء خاص » .

بليك يؤمن بهذا لانه عاش في الخيال . ولانه يعلم انه لا معنى كامل عنده لشيء ما لم يظهر في شكل خاص . والرومانسيون يتفقون في ذلك عامة . اذ يهدف فنهم ماوسعه الجهد ، الى تمثل لحظات الرؤية التي تكسب حتى اوسع الاشياء ، بساطة الاحداث المفردة وترابطها . فحتى في «قويلاي خان » التي تحتفظ بكثير جدا من خصائص الحلم الذي ولدت فيه ، يوجد تمثل رفيع لتجربة غامضة وبعيدة ، هي في الواقع التجربة البؤرية للخليقة كلها بسرورها الديونيسي وتنظيمها الممتع لعناصر عديدة في نمط مذهل . ولعل كولردج لم يكن على وعي تام بما كان يفعل حين كان يكتب ، ولكن التجربة التي يصورها انما هي في شكل ابداعي في كل لحظاتها النقية ، حيث تبدو الامكانيات اللامحدودة وقد تفتحت امامها . ولا عجب في أنه أحس بأنه اذا لم يكن يستطيع الا ملاحظة كل امكانيات مثل هذه اللحظة ، فانه قد يشبه رجلا طارح الالهة الشراب .

وحتم أن يصرخ الجميع ، حذار حذار
فان عينيه الوامضتين ، وشعره المتطاير
تنسج حوله دائرة ثلاث مرات
وتغلق عينيك على الرهبة المقدسة
لانه قد اغتذى ندى العسل
وشرب حليب الفردوس

في تلك التجربة كان البعيد والغريب وما وراء الحواس، الذي بحث عنه الرومانسيون مادة لشعرهم ، وقد رأوا ان الطريق الوحيد لتوصيل ذلك انما يقع في التجارب والنماذج الخاصة .

فالقوى الخفية التي تدعم الكون انما تعمل من خلال العالم المحسوس وداخله . ونحن لا نستطيع أن نتصل بتلك القوى الا عن طريق ما نرى وما نسمع ونلمس . وعلى كل شاعر ان يتعامل مع عالم الحواس ، ولكن هذا العالم كان للرومانسيين الاداة التي أطلقت قوى رؤاهم للعمل . وقد أثر فيهم ذلك العالم أحيانا بطريقة كانوا يبدون معها وكأنما تجاوزوه الى نسق للاشياء سام ، ولكن ذلك ما كان ليحدث ما لم يكونوا قد نظروا الى العالم من حولهم بعين الحب واليقظة . وواحدة من المزايا التي نالوها بتخلصهم من التجريدات والحقائق العامة ، هي حريتهم في استخدام حواسهم ونظرتهم الى الطبيعة دون انحياز تقليدي مسبق . وفوق ذلك انهم قد وهبوا جميعا درجة عالية من الادراك الطبيعي وأنهم أحيانا ما كانوا يخضعون لما يرون انه مسيطر على كيانهم كلية . ويصدق هذا في وضوح على وردزورث وكيتس ، اللذين أعادا الى الشعر حدة العين والاذن ، التي ما عرفها الشعر الا منذ شيكسبير . ولا يقل هذا صدقا عند بليك وكولردج وشيلي . فالعين الحذرة الملاحظة التي جعلت من بليك صناعة داهية في الخطوط والالوان كانت نشطة في شعره . والحق أنه كان نادرا ما يرضى عن وصف مايرى فحسب ، وانما كان عندما يستخدم وصف هدف خارجي ليوصل سرا واسعا ، تكون كلماته حية وصائبة وتجعل رموزه متألقة أمام العين . ورغم ان كولردج وجد بعض الهامه الجميل في الاحلام والتجليات ، فقد اكسب تفصيلاتها نصاعة فريدة في خاصيتها وخطها العريض . ورغم ان شيلي عاش بين الافكار المهومة والمجردات غير المحسوسة ، الا أنه كان مطمئنا تماما الى العالم المرئي ، ولئن كان هذا الاهتمام المجرد انه مرآة للابدية فانه لأمر جدير بالعناية . وربما وجد شعراء يعيشون في الاحلام كلية وقلما يلاحظون المألوف ، ولكن الرومانسيين ليسوا من هؤلاء . فالحق ان قوتهم تأتي الى أكبر حد من الطريقة التي يلقون بها ضوءا ساحرا ومديدا على الوجه العام للطبيعة يغرينا بالتطلع الى تفسير الفتنة التي تكشف عنها والتي لا تقاوم . ففي الطبيعة وجد الشعراء الرومانسيون جميعا الهامهم الرئيسي . ولم يكن ذلك كل شيء لديهم ، ولكنهم بدونه لم يكونوا شيئا ، لانهم وجدوا من خلاله تلك اللحظات المجيدة عندما عبروا المنظور الى الرؤيا ونفذوا ، كما اعتقدوا ، الى اسرار الكون .

وبرغم أن الشعراء الرومانسيين جميعا يؤمنون بالواقع الخارجي ويبنون على ذلك شعرهم ، فانهم يجدونه بوسائل مختلفة ويفيدون منه بطرق متباينة . وهم يتنوعون في درجة اهتمامهم بالعالم المحسوس وفي تفسيرهم له . وبليك يقف في أحد الطرفين ، اذ يؤمن بأن الخيال قوة الهية وان كل شيء حقيقي انما يصدر عنه . وهذا الخيال انما يعمل من خلال معطى هو الطبيعة ، ولكن بليك يرى ان الوقت الذي تختفي فيه الطبيعة وتتحرر فيه الروح لتخلق بدونها ، آت . وما دامت الطبيعة قائمة ، فان المرء يتخذ منها رموزه ويستخدمها في تفسير غير المرئي . وقد كان وطن بليك الحقيقي في الرؤيا التي رآها عندما ترك لخياله الخلاق كل الحرية وحول اليها الظواهر المحسوسة . وعنده أن الخيال يكشف الحقيقة التي تخفيها المرئيات . والعالم المألوف يوحي بايماءات ينبغي الامساك بها واقتفاءها وتطويرها .

أن ترى عالما في حبة رمل
وسماء في زهرة برية
وأن تمسك بالمطلق في راحة يدك
والابدية في ساعة زمن

وصل بليك من خلال المرئيات الى تلك الحالة السامية التي أطلق عليها « الابدية » وشعر بحرية في خلق عوالم حية وجديدة . وهو لم يكن بالصوفي الذي يجاهد في شقاء وظلام بحثا عن الله ، وانما المعاين الذي يستطيع ان يقول عن نفسه :

أنا في حضرة الله ليل نهار
وما اشاح عني بوجهه قط .

ان بليك هو اشد الرومانسيين دقة في مفهومه للخيال . فهو يستطيع ان يقول في ثقة : « ان قوة واحدة فقط هي التي تصنع الشاعر ، تلك هي قوة الخيال ، الرؤيا الالهية » لان الخيال عنده خالق الحقيقة ، وتلك الحقيقة هي النشاط الالهي للنفس في طاقتها التي لا تحد وقد تحول اهتمامه الى

عالم روحي مثالي ، ساعد في تشييده مع كل من دانـوا للخيـال .

وبرغم أن بليك يتمتع بعين حادة في رؤية العالم المرئي ، الا أن اهتمامه الخاص مع العالم الخفي . فعنده أن كل مرئي حي ليس الا رمزا للقوى الخالدة ، التي كان يطمح الى الامساك بها وادراكها . ولماكان مصورا ذا طبيعة زخرفية بارزة وعقلية ، فقد وصف اللامرئي بلغة المرئي ، ولا شك أنه رآه ببصيرته الداخلية . ولكن ما رآه لم يكن اذا جاز القول، بديلا للعالم المعطي ، وانما نسقا روحيا لا تستطيع لغة العالم الطبيعي أن تعبر عنه الا مجازا . وما اهتم به في عمق بالغ وانتزع طاقاته القوية كان احساسه بالحقيقة الروحيـة في عملها داخل كل الكائنات الحية . وحتى الحادثة المالوفـة عنده ، ربما كانت مشحونة بالعبر والمعاني . وتستطيع أن ترى مدى ما وصل اليه ، في « نبوءات البراءة » حيث يعرض في أبيات ملهمة ذات مغزى ، احساسه بالعلاقات الوثيقة التي توجد فيالحقيقة وتربط عالمي الرؤيةوالروح فيكل واحد. والفاظه تبدو غاية في البساطة ، ولكن كل كلمة تحتاج الى تأمل ، فهو مثلا عندما يعلن :

هزار ذو صدر أحمر في قفص
يثير غضب السماء كلها

فان هزار بليك ذا الصدر الاحمر هو نفسه كائـن روحي ، لا مجرد طائر محسوس ، هو القوى التي يتاملها مثل هذا الطائر ويرمز اليها ، هو الروح الطليق التي تمتع بالاغنية وبكل ما توحي به الاغنية . ومثل هذه الروح لاينبغي تقييدها ، فاي تقييد لها خطيئة في حق الروح الالهي للكون . كان بليك هو المعاين الذي يؤمن بأن الاشياء العادية هي في ذاتها اشياء غير جوهرية ولكنها مع ذلك ثرية باعتبارهـا رموزا لحقائق عظمى . وقد كان مطمئنا الى عالم الروح لدرجة لم تفزعه معها صلابة المادية البادية . فقد رأى شيئا آخر : رأى عالما من القيم الخالدة والارواح الحية .

أما كيتس فكان حبه للعالم المرئي أكبر من حب بليك له ، وغالبا ما درسه كرجل عاش من اجل الانطباعـات الحسية ، ولكنه يشبه بليك في اعتقاده بان الحقيقة المطلقة لا توجد الا في الخيال وحده . ويمكن ان نرى ما يعنيهالخيال عنده من بعض الابيات في قصيدة « النوم والشعر » والتي يسال فيهـا عن السبب في فقد الخيال لقوتـه القديمة ولمجالـه :

أهناك في وسع الانسان اليوم دائرة
تبلغ من الضيق ، بحيث لا يستطيع الخيال
السامي أن يخلق فيها حرا
كما اعتاد قديما ؟ حيث يعد جياده
وينطلق مخترقا الضوء ، صانعا الاعاجيب
فوق السحب ؟ ألم يرنا جميعا ذلك
من الفضاء الاثيري الصافي ،
الى الانفاس الصغيرة للبراعم الجديدة التي تتفتح ؟
لجبهة جوبيتر العريضة من مغزى ،
الى مراعي ابريل الخضراء ؟

كان كيتس عندما كتب هذه القصيدة ما يزال شابا ، ولعل ألفاظه ليست بالفة الدقة بالقدر الذي كنا نود . ولكن من الواضح أنه رأى الخيال طاقة تخلق وتكشف ، أو بمعنى آخر رآه طاقة تكشف من خلال الخلق . وياخذ كيتس اعمال الخيال لا من حيث هي قائمة في وضعها الصحيح ، ولكن من حيث صلتها بالحقيقة المطلقة من خلال ما تلقيه عليها من ضوء . ذلك المعنى الذي راح يتبعه بفكر جاد حتى رأى ما يعنيه تماما ، واتخذ منه معناه الخاص لانه اجاب عـن حاجة في كيانه الخلاق .

ومن خلال الخيال راح كيتس يبحث عن حقيقة مطلقة فتح بابها تذوقه للجمال عن طريق الحواس . فادوات الحس كانت عندما تنفث سحرها فيه يستثار ويبدو في حالة من الوجد يحس معها أنه قد انتقل الى عالم آخر ويعتقد انه أوشك أن يحيط بالكون كله . لقد أيقظت النظرة واللمسة والشمة خياله على مجال من الوجود رأى فيه أمورا عظيمة وكان على وفاق معها . ومن خلال الجمال أحس انه دخل الى عالم الحقيقي المطلق . وكلما زاد تاثير الموضوع الجميل عليه كلما زاد اقتناعا بانه قد تجاوزه الى وجود ما . يقول في انديميون Endymion ان السعادة تسمو بعقولنا الى

« اخوة الجوهر » وانها « تحول معدننا وتحررنـــا من المكان » :

أنحس بتلك الاشياء ؟ في هذه اللحظة خطونا
الى نوع من الوحدة ، تشبه حالتها .
حالة روح مهومة . ولكن هناك
ارتباكات مفرطة ، استرقاقات أبعد
أشد تحطيما للذات ، تدرج بنا
الى القوة العظمى .

حمل جمال المرئيات كيتس الى النشوة ، وكان هـذا جماع رغباته ، ما دامت اوضحت القوة غير العادية لموضوعات الحس عليه وبررت رغبته في تجاوزها الى ما هو عام وخالد . وفكرة كيتس عن تلك الحقيقة أضيق من فكرة بليك ، فهو يتحدث عنها بلغة الشاعر خاصة ، على حين يدرج بليك كل الوان النشاط التي تخلق الحياة أو تزيدها ، في الخيال. وفضلا عن ذلك ، فاننا نجد أنه ، بينما خيال بليك نشط ، ان كيتس يوحي الينا أن خياله عاطل الى حد كبير وان حاجته هي ان يحس « القوة العظمى » الا أنه قريب من بليك في الدعاوى التي يصطنعها عن الخيال باعتباره شيئا محيطا عظيما يفتح الطريق الى نسق روحي لا يرى .

وكولردج كذلك يمنح الخيال كثيرا من فكره وينذر له فصولا هامةمنكتابه: «سيرةالادب Biographia Literaria » وليس من اليسير أن نحلل النظريات التي كونها في أخريات حياته من الفروض التي سار عليها بالفطرة تقريبا ، قبل ان تبدأ ملكاته الخلاقة في الافول . ففي بعض الاحيان كان يبدو أنه ما يزال على وعي زائد بفلسفة الحسيين التي كان يؤمن بها في شبابه . ومن تلك الفلسفة اكتسب مفهوما عن عالم الواقع ، وانه « عالم بارد ميت » فيه « الاشياء كأشيـاء ثابتة ميتة » . ولكنه كشاعر سما على تلك الفكرة ، أو حولها الى نتيجة غير متوقعة . فالعالم الخارجي لانه كذلك ، فان وظيفة الشاعر أن يغيره عن طريق الخيال . تماما كما قـد تخول « الاضواء والظلال منظرا طبيعيا مألوفا ومعروفا » ، كذلك يمكن تحويل هذا العالم الميت الى الحياة عن طريـق الخيال . ويدلل كولردج على ذلك بعبارة ظاهرة التناقض جريئة :

« اني لأجرؤ على أن أضيف أن على العبقري أن يعمل وفي احساسه ان الجسم ليس الا كائنا يجاهد كي يصير عقلا ـ جوهر العقل » .

والذي يعنينا منه هو ذلك الايمان العميق بالخيال باعتباره الشيء الذي يكسب الحياة شكلا . وهذا ما نرى مغزاه فعلا في ابيات من قصيدته « كآبة » حيث يشرح فيها ان الطبيعة انما تحيا فينا فحسب واننا نحن الذين نخلق كل قيمة فيها :

آه ! من الروح ذاتها ينبثق
الضوء والعظمة وسحاب جميل منير
يحيط الارض
ومن الروح ذاتها لا بد ان ينبعث
صوت قوي وجميل ، لمولدها هي ،
لكل جميل تغني الحياة والمادة !

ولم يوغل كولردج الى المدى البعيد الذي ذهب اليه بليك في دعاواه عن الخيال . اذ ما يزال وجود العالـــم الخارجي يعوقه قليلا ، وما يزال يحس أن عليه أن يتقبله بطريقة ما . ولكن عبقريته عندما تكون نشطة ، تطرح بتلك المواقف المترددة بعيدا وتستحدث الحقيقة من « المعطى » غير المتحدد وغير المتشكل . وهو في النهاية يؤمن بأن المغزى انما يجيء للوجود من خلال ممارسة النشاط الخلاق الذي يشبه قدرة الله في ذلك .

التي يرتادها الشعر . واذا كان لنا أن نحكم عليه مـن

ولم يقدم كولردج وجهة نظر محددة عن الحقيقة المطلقة « قوبلاي خان » لتبدى لنا أنه يحس بطريقة ما ، على الاقل أن مجرد الخلق تسام في ذاته وليس لنا أن نطالبَ بأكثر من هذا . ولكن لعل الدليل على ذلك في « قوبلاي خان » غير مؤكد كل التأكيد . والحق اننا اذا رجعنا الى « المـلاح القديم » و « كريستابيل » لاتضح لنا بجلاء أن كولردج يرى أن وظيفة الشعر هي توصيل سر الحياة . وتقدم طبيعة هاتين القصيدتين الغامضة ، بما توحيان به من حالة بين

الحلم واليقظة ، بين الكائنات البشرية والارواح غير الارضية، معنى من تلك المعاني التي تثير عبقرية كولردج الى اجسر خطواتها وكل ما يفكر فيه كفيلسوف فان فكرة القوى غير الارضية تجذبه كشاعر ، وما كان يحاول آلا ادراكها . وطبيعي أنه لم يكن يميل الى أن يفهمه القارىء فهما حرفيا ، ولكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاحساس بأن ادراك خياله للحقيقة كان عن شيء يقع وراء الافعال الانسانية ، شيء أكثر حياة من العالم المألوف بما فيه من تناقضات حادة بين الخير والشر وبما فيه من طريقة ذات هدف يتحرك داخلها . ولم ينم هذا المفهوم الا في الشعر وحده ، بل لم ينم الا في قصيدتين أو ثلاث من شعره . ويبدو كولردج كأنما أكرهه على ذلك خوفه من أن الحياة انما تحكمها قوى لا يمكن ادراكها ادراكا تاما . وكان نتيجة ذلك شعرا أكثر غموضا من أي شاعر آخر من شعراء الرومانسيين ، ومع ذلك ، ولانه شعر قائم على العواطف الانسانية البكر ، فهو شعر لاذع وقريب الى النفس .

ووردزورث يتفق يقينا مع كولردج في كثير مما قال عن الخيال ، وخاصة في تفرقته بين الخيال والوهم . فالخيال عنده أهم هبة يمنحها الشاعر ، ويظهر لنا ترتيبه لقصائده ما يعنيه بذلك . فالقسم الذي يطلق عليه « قصائد من وحي الخيال » يشتمل على قصائد يوحد فيها بين القوة الخلاقة والبصيرة النافذة الخاصة . وهو يتفق مع كولردج في ان تلك الطاقة أشبه بقدرة الله . انها القدرة الالهية لطفل يبدع عوالمه الصغيرة الخاصة :

اذ أحس أن القوة الموهوبة
لان الاحساس قد وهبه قوة
تتميز من بين ملكات الحس النامية
بأنها ممثل للعقل العظيم الاوحد
تخلق ، خالقة ومتقبلة معا ،
فاعلة ولكن في اتحاد مع الافعال
التي تراها .

ويحتفظ الشاعر بتلك الموهبة في سني النضوج ، وماهو بشاعر الا بها . ولكن وردزورث كان واعيا كل الوعي بان الخلق وحده غير كاف ، بل لا بد أن تصحبه بصيرة خاصة . ولذلك نراه يفسر لنا معنى الخيال بقوله :

ان هو الا اسم آخر للقوة المطلقة
والبصيرة الشافة ، ورحابة الذهن ،
والعقل في اسمى حالاته .

ولم يذهب وردزورث بعيدا كما فعل غيره من الرومانسيين في وضع العقل في مكانة دنيا . وانما فضل أن يكسب الكلمة قيمة جديدة ، وأصر على أن البصيرة الملهمة ليست الا شيئا منطقيا في ذاتها .

وهو يختلف مع كولردج في ادراكه للعالم الخارجي . فهو يعترف باستقلال هذا العالم ويصر على وجوب أن يعترف به الخيال بمعنى ما . وهو مرة أخرى ، يرى أن الشيء الذي تصيره الطفولة :

قوة تشكيلية
تقطن معي ، يد خالقه ، أحيانا
ثائرة ، تعمل بطريقة زائفة .
وروحها المحدودة الخاصة ، في حرب
مع الميل العام ، ولكنها لدى الغالبية ،
تابعة تبعية تامة للاشياء الخارجية
التي تشترك معها .

فالخيال عند وردزورث ينبغي أن يكون في خدمة العالم الخارجي ، اذ ليس العالم ميتا وانما هو حي له روحه الخاصة ، وهي روح تختلف عن روح الانسان ، بمعنى كلمة الحياة كما نعرفها على الاقل . وان وظيفة الانسان هي ان يدخل في وحدة مع تلك الروح ، والحق انه يستطيع أن يتجنب هذا ، اذ أن حياته تتشكل منذ الميلاد وفق الطبيعة التي تنفذ الى وجوده وتؤثر في أفكاره . وهو يعتقد انه يساعد في تقريب روح الطبيعة تلك من الانسان ، حتى ليستطيع أن يبدي :

بالكلمات
التي لا تتكلم عن شيء الا عما نحن عليه

كيف يتلاءم العالم الخارجي مع العقل الفردي ، وكيف يتلاءم العقل الفردي والعالم الخارجي تلاؤما تاما ، وهذا

ما لم يكن يستسيغه بليك ، ولا بد من التسليم بذلك . ولذلك يعلن أنه : « لن تضطرني الى التسليم بمثل هـذا التلاؤم والتلائم » . ولكنه كان عند وردزورث امرا صائبا . فقد كانت الطبيعة ينبوع الهامه ، وما كان يسعه أن ينكر عليها أنها ذات وجود لا يقل قوة عن وجود الانسان . ولكن بما أن الطبيعة قد رفعته خارج ذاته ، فقد راح يبحث عن حالة اسمى تتحد فيها روح الطبيعة بروح الانسان فـي انسجام فريد . وكان أحيانا يحس أن ذلك قد تم ، وانـه قد استطاع عن طريق البصيرة أن يصل الى ادراك توحـد الاشياء .

وبرغم أن عقلية شيلي كانت تسير في طريق يختلف عن الطريق الذي سار فيها أضرابه من الرومانسيين ، فانه لم يكن يقل عنهم ارتباطا بالخيال ومنحه ، في نظريته عـن الشعر . مكانة لا تقل عن تلك المكانة التي أولوه اياها ، فقد فهم الطبيعة الخلاقة للشعر ، ويبين لنا عن فكرة عنها عندما تغني الروح للشاعر في « بروميثيوس » طليقا :

لسوف يرقب من ساعة الفجر حتى الغروب
اشعة الشمس المنعكسة فوق البحيرة
النحلات الصفراء فوق براعم العليق
لن يصغي ولن يرى ، أي أشياء تكون ،
ولكنه يستطيع من خلال تلك المخلوقات
ان يخلق خلقا اكثر صدقا من الانسان الحي ،
ابناء الخلود !!

فشيلي يرى أنه على الرغم من ان الشاعر قد لا يلاحظ العالم الخارجي ، الا أنه أقل من أنه يستخدمه مادة لخلق كائنات مستقلة ذات درجة عالية من الواقع . بل انه لم يقف عند ذلك الحد . فهو يرى أن على العقل ان يرتبط بطريقة ما بالخيال . ويصر على عكس وردزورث ، على أن وظيفة العقل الاولى هي ببساطة ان يحلل المعطي وأن يعمل كاداة في يد الخيال ، الذي يستخدم نتائجه لخلق كل متناسق ومترابط . وهو يدعو الشعر « التعبير عن الخيال » لان الاشياء المختلفة تتجمع فيه في تناسق بدلا من تشتتها عـن طريق التحليل . وهو يشبه في ذلك مفكرين من امثال بيكون ولوك ، وان اختلفت النتيجة التي انتهى اليها عن نتائجهم ، اذ يصر على أن الخيال اسمى ملكات الانسان وان الانسان يستطيع عن طريقه أن يحقق أنبل طاقاته .

وشيلي يفند في كتابه « دفاع عن الشعر » ذلك الرأي القديم الذي يحط من شأن الخيال مدللا على ذلك بأن للشاعر وسيلته المعينة الى المعرفة .

« فالشاعر لا يدرك الحاضر ادراكا قويا كما هو فحسب، ولا هو يكشف تلك القوانين التي يتحتم ان تنتظم الاشيـاء الحاضرة في داخلها فقط ، ولكنه يدرك المستقبل في الحاضر ، وأفكاره هي بذور الابدي واللانهائي والواحد » .

ذلك أن الشاعر نبيء عند شيلي ، منح بصيرة خاصة ينفذ بها الى جوهر الحقيقة وهي نسق كامل غير متغير ولا يحده زمن ، لا يعدو العالم المألوف أن يكون انعكاسا منكرا له . وقد أخذ شيلي نظرية المعرفة عن افلاطون وطبقهـا على الجمال . فالمثل عنده ليست أسسا للادراك قدر ما هي أسس لتلك البصيرة السامية التي نكون عليها في حضرة الجميل ووظيفة الشاعر هي أن يكشف عن ذلك الصدق المطلق في نماذجه المرئية وأن يفسرها من خلاله . والخيال روحي بهذا المعنى ، لانه يشمل كل الملكات الروحية للانسان ويكسب مدركاته الحسية العابرة معناها . وقد حاول شيلي أن يمسك بكلية الاشياء في وحدتها الجوهرية ، لكي يرى ما هو حقيقي وما هو مجرد ظاهري ، ولكي يبين بذلك كيف يعتمد الظاهري على الحقيقي . وعنده أن الحقيقة المطلقة هي العقل الابدي ، وهذا العقل هو الذي يمسك على الكون ترابطه :

هذا الكـل
من شموس وعوالم وأناس وحيوان وورود ،
بكل الاعمال الدائبة العاصفة والساكنة
التي كان عليها او يكون ، أو كف عنها
ليس الا رؤيا ، وكل هذا الذي ورثه
ذرات تراب في عين مريضة ، فقاعات وأحلام ،
الفكر مهده ، ولحده ، لا أقل
وما الغد والامس الا ظلان فارغان
للهروب الابدي للفكر ـ لا وجود لهما ،
باطل من لا يحس بذاته انه موجود .

وجد شيلي الحقيقة بفكره ومشاعره ، بوجدانه وروحه ، وقدم بذلك اجابته على عدمية بروسبيرو . فهو يرى أن وظيفة الخيال هي خلق أشكال يمكن أن تتكشف هذه الحقيقة من خلالها .

اذن فان كبار الرومانسيين متفقون على أن وظيفتهم هي أن يجدوا عن طريق الخيال نظاما ساميا يفسر عالم الظواهر والقيم لا لمجرد وجود الاشياء الظاهرة ، ولكن لما لهذه من أثر علينا ، لضربات القلب المفاجئة في حضرة الجمال ، للاعتقاد بأن ما يحركنا الان لا يمكن أن يكون خدعة او هلوسة، ولكن لانه يستمد أثره حتما من القوة التي تحرك الكون . وعندهم أن هذه الحقيقة لا يمكن الا أن تكون روحية ، وهم يستمدون صورة مستقلة من فكرة هيجيل في أنه لا شيء حقيقي الا الروح . وهم بايغالهم هذا في كتابة العبارات الطنانة عن وحدة الاشياء ، ميتافيزيقيون ، وان لم يشبهوا المتخصصين من هؤلاء ، فهم لا يثقون بالمنطق ، وانما بالحدس ، ولا يثقون بالعقل التحليلي وانما بالروح الملهمة المنتشية ، التي تسمو ، بطبيعتها الكاملة ، على العقل والمشاعر كليهما . كذلك كانوا متدينين ، على طريقتهم الخاصة، مؤمنين بقدسية وحدة الحقيقة وما يستشعرونه في حضرتها من رهبة . ومع ذلك ورغم اهتمامهم بمعتقداتهم . الا أنهم لم يكونوا متزمتين . فبليك ينكر وجود الله منعزلا عن الانسان ، وكان شيلي يحب أن يعلن أنه ملحد ، ولم يكن كيتس متيقنا الى أي مدى يتقبل مبادىء المسيحية . وذلك رغم أن كلا من كولردج ووردزورث قد أكدا فيما بعد بحماسة تقريبا وفي أروع أيام ابداعهما ، أن شعرهما يقوم على عقيدة مختلفة . كانت الحركة الرومانسية محاولة رائعة لكشف عالم الروح عن طريق جهود مفردة للروح وحدها . كانت اظهارا خاصا لذلك الايمان بقيمة الذات الفردية ، بقيمة الفرد ، الذي راح الفلاسفة والساسة يبشرون به في العالم حديثا .

كانت تلك الريادة الجريئة الى عالم المجهول ، والتي يقودها اخلاص مدقق وايمان عميق ، بعيدة كل البعد عن ان تكون استغراقا عاطفيا في الذات . فقد كان كل من هؤلاء الشعراء مقتنعا بأنه يستطيع أن يكشف شيئا بالغ الاهمية وأنه يملك بالشعر مفتاحا لا يتمتع به الناس . وقد كانوا مهيئين لتكريس ذواتهم لهذا العمل ، وقد دفعوا الكثير في سبيله بوسائل مختلفة ، من سعادتهم ومن ثقتهم بانفسهم ومن كل طاقة قواهم الخلاقة . لم يرضهم أن يحملوا أحلامهم الخاصة وأن يصوروا هلوسات مريحة . وأصروا على أن ما يبدعونه حقيقي بالضرورة ، لا بالمعنى الضيق في أن أي شيء يمكن أن نفكر فيه هو نوع ما من الوجود ، وانما بالمعنى الواسع وهو أن تلك المخلوقات ان هي الا مثل وتجسيدات للاشياء الابدية التي لا يمكن تمثلها الا عن طريق المثل الفردية . وقد نسق الرومانسيون رؤاهم ، لانهم كانوا شعراء ، بتراء لا يستطيع الا الشعر وحده أن يمنحه ، في شكل متفرد متماسك ، يجعل العام حيا وواضحا للعقل المحدود . وقد رفضوا أن يسلموا بأفكار غيرهم من الناس تسليما أعمى ، أو أن يضحوا بالخيال من أجل المنطق . كما يقول بليك عن لوسي :

لا بد أن أخلق نظاما أو يستعبدني نظام انسان آخر
لن أمنطق وأقارن : فوظيفتي أن أخلق .

عرف الرومانسيون ان وظيفتهم هي الخلق ، وأن ينيروا عن طريق هذا الخلق نفس الانسان الواعية المدركة جميعها ، حتى يوقظوا خياله على الحقيقة التي تقع وراء المألوف من الاشياء ، حتى يرفعوه من رتابة العادة المميتة الى الوعي بالابعاد التي لا تقاس والاعماق التي لا تدرك ، وأن يبينوا له ان العقل وحده لا يكفي ، وأن ما يحتاج اليه هو الحدس الملهم . لقد كانت نظرتهم الى الانسان والشعر أوسع من نظرة سابقيهم العقليين المتزنين ، من شعراء القرن الثامن عشر ، لانهم يؤمنون أن الطبيعة الروحية للانسان وحدها هي له ، ولهذا وحده قاموا بجهودهم ونادوا بدعواهم ■